الفصل الثاني

حرب التحرير والاستقلال والأمال المعقودة

(*) ورقة علمية قدمت لمركز الدراسات الاستراتيجية ببيروت (يونيه ١٩٩٧ م)، و نشرت فى مجلة المركز (شئون الأوسط)، عدد ٦٨، ديسمبر ١٩٩٧ م، ص ٦٧ : ٨٥.

المبحث الأول

الرصيد الاستراتيجى لحرب التحرير والاستقلال(*)

يخطئ من يتصور أن الأمة العربية أضحت جثة هامدة، شعوبًا وأنظمة، كما يخطئ من يتصور أن الرصيد الاستراتيجى فى الضغط العربى قد نفد وانتهى، وأصبح الوطن العربى مفعولاً به للأبد: كما يخطئ من يبنى حساباته على أن الأوضاع المتردية فى الوطن العربى وفى الأراضى العربية المحتلة، وسوء الوضع الفلسطينى فى ظل الضربات الإسرائيلية القاتلة، ستستمر إلى ما لا نهاية. كما يخطئ أيضًا من يبنى حساباته على أن الاستخدام «المتهور» للقوة يحسم المعارك تمامًا، وإلا ما كانت شعوب كثيرة قد انتصرت فى ڤيتنام ضد الولايات المتحدة، وفى الجزائر ضد فرنسا، وفى الهند ضد بريطانيا.

تلك مقدمة ضرورية لفهم المغزى السياسى للنقد المستمر من القيادات الفكرية العربية للأوضاع المتردية على الصعيد العربى. وهو بلا شك نقد شديد ومطلوب؛ لأنه لا يستهدف إلقاء «التراب» على كل شىء، ولكن الهدف الحقيقى هو تحريك الشعوب والضغط على الأنظمة الحاكمة لدعم المناضل الفلسطينى فى حرب التحرير والاستقلال التى لم يعد لها بديل أمام الفلسطينيين لاسترجاع حقوقهم وتحرير أراضيهم من الاحتلال الإسرائيلى الغاشم.

فالملاحظ أن هناك نبرة نقد عالية وموضوعية فى الخطاب العربى للولايات المتحدة، وللأنظمة العربية معًا. وفى خضم الحماسة الوطنية لدى القيادات الفكرية ترتفع هذه النبرة دون الوقوف والتنبيه إلى بعض التحولات على كل الأصعدة الداخلية والخارجية والتى تشع بالأمل نتيجة الصمود الوطنى الفلسطينى فى مواجهة «إسرائيل ـ شارون». والذى يتابع وسائل الإعلام الموضوعية من الداخل والخارج يلمس هذه الملاحظة وهى

(*) نشرت بالأهرام، بتاريخ ١ / ٩ / ٢٠٠١م

أن هناك تحولات إيجابية لصالح الطرف الفلسطينى بصفة خاصة وقضيته العادلة والطرف العربى بصفة عامة.

ومن جانبى فإننى مع تزايد حدة النقد؛ لأنها تعبر عما يجيش فى صدور الشارع العربى الغاضب، والذى لا يجد متنفسًا للتعبير عن رأيه وغضبه، إلا من خلال هذا النقد المطلوب. لذلك فإن من يتصور أن الشارع العربى قد مات مخطئ لأن هذا الشارع يغلى لما يحدث لأشقائه فى فلسطين، ويتألم لهم، ولكن عوائق التعبير فى الوطن العربى تحول دون إظهار ذلك أو ترجمته فى واقع عملى تشعر به أنحاء الدنيا كافة. كما أن هذا الشارع يسهم فى مساندة شعبية جماهيرية واسعة النطاق فى دعم الشعب الفلسطينى وسلطته الشرعية. ولذلك يمكن ملاحظة عدد من التحولات التى تعد بلا شك رصيدًا استراتيجيًا للمناضل العربى الفلسطينى ومنها:

١ ـ تزايد حركة الشارع السياسى فى أنحاء العالم المؤيدة للفلسطينيين وحقوقهم المشروعة، ومعاداة إسرائيل وحكومة شارون: وقد لوحظ ذلك من خلال بعض الأمثلة، والمظاهرات والاحتجاجات فى بريطانيا وألمانيا وفرنسا، وكذلك المظاهرات الضخمة احتجاجًا على زيارة شارون لتركيا فى الثامن من أغسطس الماضى والتى لم تستغرق إلا (١٠) ساعات فقط حيث تم تنظيم معرض صور لفضح جرائم رئيس الوزراء الإسرائيلى ضد الإنسانية، تنديدًا بشخصه وتاريخه الأسود وسياساته التعسفية ضد الفلسطينيين. وقد سبق ذلك مظاهرات ضده عند زيارته لعدة دول أوروبية لم يكملها إزاء شدة المظاهرات واحتمالات خوفه على حياته!! كما يجرى الإعداد لمظاهرات ضخمة عند زيارة شارون لروسيا فى أوائل سبتمبر (٢٠٠١م)، رفضًا للزيارة وتنديدًا بسياساته العدوانية والاستفزازية، ودعمًا للفلسطينيين فى نضالهم المشروع ضد العدوان الإسرائيلى وحتى إعلان دولتهم المستقلة.

٢ ـ تزايد موجة محاكمات شارون فى أوروبا، والتى بدأت بشكوى السيدة / سعاد سرور أمام قاضى التحقيقات فى بلجيكا نتيجة لتعرضها للتعذيب هى وأسرتها خلال مذبحته الشهيرة فى صابرا وشاتيلا فى سبتمبر ١٩٨٢م. وأن هناك أدلة اتهام وشكاوى أخرى فى عدة دول أوروبية.

إن مثل هذه المحاكمات، تشكل ضغطًا على شارون وهو ما حدا بخبير القانون

الدولى أن يعلن صراحة أن «شارون وميلوسيفيتش» وجهان لعملة واحدة. وكما أنه ألقى القبض على الأخير لمحاكمته فإنه من الضرورى محاكمة شارون باعتباره مجرم حرب وليس رجل دولة (الأهرام- ٣٠ يوليو ٢٠٠١م). كما أن البعض يرى ضرورة تغييرات عاجلة فى القوانين العربية لإجراء مثل هذه المحاكمات لـ «شارون» لإثبات الأدلة الدافعة على التخلص من هذا الرجل، وإرهاب أمثاله من هذا التفكير الدموى الإجرامى.

٣- تزايد حملة التأييد الإعلامى للموقف الفلسطينى والتنديد بالعنف الإسرائيلى غير المسوغ. ومن ذلك تقرير (B. B. C) البريطانية أشار إلى أن إسرائيل دولة عنصرية وأن انتفاضة الأقصى نصت على وهم دمج عرب ١٩٤٨ فى المجتمع الإسرائيلى الذين يشكلون ١٨٪ من سكان إسرائيل. وقد أسهم هذا التقرير فى فضح السياسة العدوانية والعنصرية لإسرائيل، وأذيع أخيراً خلال الأسبوع الثالث من شهر أغسطس ٢٠٠١م. فضلاً عن مقالات كثيرة لكبار الكتّاب فى الصحف الكبرى الشهيرة، من ذلك: «روبرت فيسك» فى مقاله بصحيفة الإندبندنت البريطانية، فى ١٨ / ٨ / ٢٠٠١م، ومقال «إدوارد بيلكنجتون» بصحيفة الجارديان البريطانية أول أغسطس ٢٠٠١م وكذا مقال «ديبورا سونتاج» فى صحيفة «نيويورك تايمز»، عن صحيفة الهيرالد تريبون الدولية فى نهاية يوليو ٢٠٠١م. وغير ذلك لا حصر له. ويتأكد لمن لم يقرأ أو يتابع ويستمع ويشاهد وسائل الإعلام الغربية وبالتحديد أن هناك خجلاً لما يحدث، وشعوراً بضعف حجتهم فى الدفاع عن إسرائيل وسياسة شارون، وتحولات نحو التنديد بسياسات هذا الرجل الذى يمكن أن يسبب أضراراً كبرى للغرب. وليس هذا كله بعيداً عن دعم ومساعدة للموقف الفلسطينى مباشرة أو بصورة غير مباشرة على الأقل، ولذلك فإن اجتماع وزراء الإعلام العرب وما خلصوا إليه من ضرورة وضع برنامج استراتيجى للإعلام العربى لغزو الرأى العام فى أنحاء العالم، والبدء فوراً فى ذلك بمبادرة طيبة فى تغذية هذا المد الإعلامى المتزايد والمؤيد للحق العربى والفلسطينى فى هذه الآونة.

٤- التحرك الأوروبى المتزايد سواء من خلال المبعوث الأوروبى الخاص بالسلام (ميجيل موراتينوس)، أو من خلال وزير خارجية ألمانيا بتشجيع أمريكى، أو بعض وزراء خارجية عدد من الدول الأوروبية لهو ظاهرة إيجابية برغم محدودية الدور

وضعف فعاليته. إلا أن إعلان الاتحاد الأوروبى عن رفضه منح مزايا تفضيلية لمنتجات المستعمرات الإسرائيلية، هو سلوك عملى يستحق التشجيع ومواصلة الضغط العربى على أوروبا لاتخاذ خطوات أكثر ضغطًا على إسرائيل.

كما أن هذا يستلزم أيضًا استحضار الأطراف الدولية الأخرى كروسيا والصين واليابان، والتلويح لهم بإمكانية استخدام أوراق ضغط عربية عليهم وهى كثيرة، حتى ينخرطوا فى عملية السلام وتجنب حرب قادمة، نراها فى الأفق يمكن أن تهدد الجميع، وحتى يتخلصوا من الاحتكار الأمريكى لعملية السلام فى «الشرق الأوسط».

٥ ـ تزايد حجم الخسائر الإسرائيلية فى الاقتصاد والسياحة، ويوضح استطلاع للرأى أجرته المفوضية الأوروبية بين رجال الأعمال الإسرائيليين والعاملين فى القطاع الخاص الإسرائيلى، أن أكثر من ٥٨,٥٪ من رجال الأعمال الإسرائيليين، على اقتناع بأن أوضاع الاقتصاد الإسرائيلى فى أسوأ حالة (عن صحيفة هاأرتس الإسرائيلية)، وحدث هروب جماعى للسياح من أوروبا وأمريكا وتم إلغاء خطوط طيران مباشرة، منها شركة طيران (TWA) لقلة المسافرين إلى إسرائيل، إضافة إلى إلغاء برامج الشباب الأمريكى والأوروبى لإسرائيل خلال أشهر صيف ٢٠٠١م.

٦ ـ الهروب الجماعى للشباب الإسرائيلى من إسرائيل إلى مواطنهم الأصلية مع تزايد حدة حرب التحرير الفلسطينية، فقد ذكرت دراسة إسرائيلية أن ١٤٪ من الإسرائيليين يسعون إلى مغادرة إسرائيل منذ بضعة أشهر، فقد بلغت النسبة لدى الشباب بين (٢٨، ٣٤) سنة، حوالى ٢٨٪.

وقد سبق أن أشرنا إلى تصاعد حجم القلق والتوتر والخوف لدى الإسرائيليين، قلقًا على حياتهم، وأن ما يقرب من ٤٠٪ يفكرون فى النزوح والهجرة مرة أخرى.

وهناك مؤشرات كثيرة بخلاف هذه المؤشرات الستة، التى تعتبر رصيدًا استراتيجيًا يستوجب استثماره لدعم الموقف العربى والفلسطينى.

وتشير تأكيدات السيد أحمد ماهر (وزير خارجية مصر) للأهرام فى ١/٨/٢٠٠١م، وأكدها فى تصريحات متتالية طوال شهر أغسطس، أن سياسة شارون لا تبعث على الأمل فى التوصل إلى اتفاق أو سلام. ويجب على المجتمع الدولى التدخل حتى لا تعم الفوضى فى المنطقة.. كما يشير السيد / عمرو موسى أمين

عام الجامعة العربية فى ١٢ / ٨ / ٢٠٠١م للأهرام: «أنه لا أمل فى حل القضية الفلسطينية الآن، والتسوية وصلت إلى منتهاها، وعلينا أن نستعد للخيار الأسوأ..».

ويشير الواقع الفعلى إلى تصاعد العنف الإسرائيلى وتجاوزه لكل الخطوط ودون قيود أو سقف حاكم له، ووصل إلى محاولة اغتيال القيادات الفلسطينية وآخرها أمين عام جبهة التحرير الفلسطينية السيد / أبو على مصطفى، بل الاقتراب من مقر إقامة السيد / عرفات نفسه (رحمه الله).

وقد كان نتاج العنف الإسرائيلى استشهاد ما يقرب من (٧٥٠) فلسطينىّ بنهاية يوليو ٢٠٠١م، ١٢ ألف جريح ونحو مليار دولار خسائر اقتصادية للفلسطينيين، واحتلال بيت الشرق، مقر السلطة الفلسطينية فى القدس، والاعتداءات المستمرة على أراضى السلطة الفلسطينية فى جنين ورفح وغيرهما.

وفى المقابل فإن هناك صمتًا دوليًا مريبًا، وانحيازًا «مفضوحًا» للولايات المتحدة لإسرائيل وسياساتها العدوانية.

وفى المقابل أيضًا تحرك عربى محدود، ظهر فى مؤتمر وزراء الخارجية العرب الأخير الذى كان فى اجتماعه فقط ظاهرة إيجابية تحتاج لخطوات عملية مدمجة ومبرمجة، ولا ننسى أن نشيد بالدعم العربى المادى للفلسطينيين، الذى وصل إلى ٧٥٪ تقريبًا، وهناك دعم كبير من الشعوب العربية يبعث على التفاؤل والأمل.

ومع كل ذلك، فإن الرصيد الاستراتيجى الحقيقى ليس فى امتلاك القوة وعناصرها - وهى موجودة لدى العرب بلا حدود، بل فى توافر القدرة على التوظيف الحقيقى لهذه القوة لتحقيق الأهداف المنشودة. فما أشرنا إليه من مؤشرات تعد فى الرصيد الاستراتيجى يمكن أن تذهب هباء لو لم تستثمر وتوظف على نحو السرعة. وهذه القدرة لا تأتى إلا من توافر الإرادة، وهنا فلا يمكن أبدًا ونحن نمتلك كل مقومات القوة الحقيقية لإجبار الآخرين على الخضوع لمطالبنا، ثم نسعى لاستجداء السلام بحجة أنه خيار استراتيجى. فالسلام إذا لم يكن مطلبًا مشتركًا بين أطراف متنازعة، يصبح الإصرار على السلام وإلغاء بديل المقاومة من المقاطعة حتى الحرب، هو «استسلامًا حقيقيًا» فلم يعد أمامنا من بديل إلا استجداء السلام الاستسلامى، أو المقاومة حتى

النهاية باستخدام وتوظيف عناصر القوة التى نمتلكها وهى كثيرة وسبق استخدامها كالبترول عام ١٩٧٣م وما أحدثه من تحولات سريعة نعلمها جميعًا.

فلا يجب علينا أن نسمح لأحد بأن يضحك علينا بمعسول الكلام وبالتالى «نرقص» على أنغامهم، إنما علينا ألا نسمح إلا بفعل جاد فى الواقع العملى من أى طرف دولى، وإلا فإن الاستجابة للتحدى الذى نواجهه نحن العرب الآن، هو الضرورة، إن لم يكن الحتمية الحقيقية.

«كشروا» يا عرب، مرة جديدة، واكسروا «الأغلال» والقيود حتى يحسب لنا ألف حساب. وإننى لعلى ثقة من أن هذه التكشيرة قادمة بإذن الله مع استمرار مقاومة الشعب الفلسطينى وحربه المقدسة فى تحرير أرضه.

***

المبحث الثانى

ثقافة المقاومة هى الخيار الوحيد(*)

لا يخفى على أحد الآن بعد الإعداد الواسع للقمة العربية الأخيرة (مارس ٢٠٠١م)، ومحاولة تهيئة الأجواء نحو طموحات كبرى من وراء القمة، وما تمخض عنها بعد ذلك من نتائج متواضعة لا تتفق وهذه الطموحات، أن المصداقية آخذة فى التآكل، وأن الأمل فى الطريق إلى الانحسار.

ومع ذلك، فإن المتأمل لدقائق الأمور فى مسيرة هذه القمة قبل وأثناء وبعد انعقادها يومى ٢٧، ٢٨ مارس ٢٠٠١م، يلاحظ عدداً من النقاط تستلزم خلاصة معينة. ومن هذه النقاط ما يلى:

١ ـ أن لغة «الخطاب السياسى» لوثائق هذا المؤتمر من كلمات افتتاحية وخطب رؤساء الدول والملوك، وتعقيبات ومداخلات، وقرارات وبيان عمان الختامى، وما أجرى عليه من تعديلات حتى اللحظة الأخيرة وعلى الهواء، تشهد تقدمًا وخطوة للأمام. ويلاحظ عليها الوضوح أكثر من سابقتها، وطرح الموضوعات الشائكة بطريقة أفضل مما كان سائداً من قبل، برغم محدودية نتائج الطرح الجديد. كما أن هذه اللغة تعكس وعيًا سياسيًا عاليًا ومتزايداً عما كان من قبل، فى استيعاب الظروف والمتغيرات المحيطة بنا، فضلا عن أنها كلٌ على حدة، كانت اللغة والرؤية على مستوى تحديات القرن الحادى والعشرين. إن لغة الخطاب السائدة تحتاج إلى مستمع جيد لكى يدرك ما يكمن خلفها، حيث أرى أمة مكبوتة تحتاج إلى الانطلاق ولكنها مقيدة بسلاسل، أراها من ورق وليس من حديد. فهى أمة ليست مكبلة لكنها تحتاج إلى الانتفاض مما يكبلها بشجاعة واضحة.

(*) كتبت فى ٢٩ / ٣ / ٢٠٠١م، ولم تنشر.

٢ ـ أن الارتكان على أن السلام هو اختيار استراتيجى، هو سياسة تحتاج إلى مراجعة نقدية شديدة. فالقائل بهذه الخلاصة كان يسلم إرادة الأمة لأعدائها بلا ثمن حقيقى. فالسلام بوصفه فكرة ليست مرفوضة من أحد باستثناء إسرائيل التى ترى السلام عكس ما يراه العالم كله من حياة هادئة ومصالح متبادلة ودولة آمنة بلا مشكلات مع جيرانها. فإسرائيل ترى نفسها فى خضم المشكلات ورأس الجسر لحماية مصالح صهيونية وإمبريالية عفى عليها الزمن.

وقد عمد كثيرون إلى إشاعة فكرة ثقافة السلام، لتبرئة الذمة أمام إسرائيل وأمريكا بأنهم ملتزمون، كما تعهد هؤلاء بالقول بأن أكتوبر آخر الحروب مصادرة على حق الأجيال القادمة فى صنع قرارات حياتها ومستقبلها فى ضوء ما تواجهه من تحديات. ولكن فى الأصل فإن هؤلاء هدفوا إلى إشاعة مناخ الاستسلام لإسرائيل وحلفائها وإخراج لغة مجرد الرد على تهديدات إسرائيل بابتلاع سيناء فى ساعات والأرض المحتلة فى ٤ يونيه كلها، وضرب السد العالى وتفتيت الوطن العربى إلى أقليات متناحرة، من الخيارات المتاحة، وليس التهديد بالحرب فى مواجهة تهديدات إسرائيل!! بعبارة أخرى فإن لغة الرد غائبة سواء بإمكانية الدفاع أو التهديد بحرب مقابلة لما تفكر فيه إسرائيل. وقد أعطى ذلك إسرائيل الفرصة الكاملة للعبث والتهديد المستمر والاستفزاز دون مقاومة. وهكذا رأينا البجاحة الإسرائيلية فى سلوكها المتعمد بضرب مقر ياسر عرفات واغتيال أحد حراسه الخصوصيين، وضرب الضفة والقطاع بجميع أنواع الأسلحة، عقب الانتهاء من القمة العربية فى عمان، ولم يكن الرؤساء قد خرجوا من القاعات!! فضلا عما سلكته الولايات المتحدة من استعمال حق الڤيتو ضد مشروع قرار فى مجلس الأمن يقضى بإرسال قوات مراقبة دولية بين إسرائيل والفلسطينيين، وكان هذا بمثابة السلوك المستفز للولايات المتحدة ضد العرب أثناء عقدهم للمؤتمر وقبل نهايته!!

وأرى أن ذلك كان من جراء خلو وثائق المؤتمر من إشارة صريحة إلى إمكانية التفكير فى طرح بدائل للسلام فى حالة عدم التزامها، مجرد إشارة إلى أن السلام بديل من بين عدة بدائل، كان كفيلاً بردع إسرائيل، بدلاً من الإشارة العلنية والصريحة بتهديد إسرائيل!! إن طموحاتنا أصبحت متواضعة إلى هذا الحد!!

٣ ـ أن تحديد موعد الاجتماع القادم فى دورة انعقاده العادية فى مارس عام ٢٠٠١م فى بيروت ـ بلد الصمود والتحدى ـ بدلاً من أبو ظبى عاصمة دولة الإمارات، لهو إشارة خفية لمن يفهم ويدرك ولديه الأمل ولو فى طموح متواضع، أن المقاومة هى الحل. وأن حزب الله وما على شاكلته هو الآلية الرئيسية للتعامل مع العدو الصهيونى الجبان الذى لا يفهم سوى لغة القوة. فلبنان الصغير فى المساحة والإمكانات والقدرات العسكرية استطاع أن يكون كبيراً بإصراره على انتهاج طريق المقاومة حتى أجبر إسرائيل على أن تجر أذيال الهزيمة من الجنوب اللبنانى تاركة وراءها الخزى والعار والهزيمة الثقيلة. لقد رحلت إسرائيل بدون شرط أو قيد أو اتفاق، ومرغمة على الرحيل، ليس تنفيذاً لشرعية دولية أو مقررات دولية، وإنما إعمالاً لمبدأ المقاومة بالقوة. ولقد بح صوتنا فى ضرورة تنفيذ القرار (٤٢٥) الصادر من مجلس الأمن بالطرق الودية إلا أن إسرائيل مكثت تماطل أكثر من (١٥) عامًا دون جدوى!! حتى إن مجلس الأمن وأجهزة الأمم المتحدة والقوى المهيمنة على هذه المنظمة لم تبذل جهداً فى تنفيذ مقرراتها، تاركة لإسرائيل التهام ما تريد من أراضى الغير دون رادع. ولعدم فضح المستور أكثر من ذلك يمكن إصدار بعض القرارات للتهدئة العربية تاركة لإسرائيل الرغبة فى التنفيذ من عدمه!! هكذا كان الوضع إزاء الجنوب اللبنانى، امتداداً لقرارات الشرعية الدولية رقم (١٨١) بتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧م، وقرار عودة اللاجئين الفلسطينيين رقم (١٩٤)، وقرار ٢٤٢ عام ١٩٦٧م بإعادة جميع الأراضى العربية المحتلة قبل ٥ يونيه ١٩٦٧م، وقرار ٣٣٨ لعام ١٩٧٣م عقب حرب أكتوبر وغيرها. وجميعها لم ينفذ حتى الآن بكل أسف!!

وقد نجحت المقاومة اللبنانية فى إجبار إسرائيل على الرحيل دون نظر أو تفاوض أو قرارات دولية مغلفة بالعنصرية، من جنوب لبنان، وما زالت المقاومة مستمرة حتى الرحيل من «مزارع شبعا». ولم تخش لبنان من الهجوم الإسرائيلى المستمر عليها ولم تركع أو ترتجف خوفًا. وقدمت نموذجًا يحتذى من المقاومة ضد إسرائيل.

ولذلك فإن عقد المؤتمر القادم فى بيروت بلد الصمود والتحدى، هو إشارة خفية بإمكانية الطرح الخفى لثقافة المقاومة، ودعونا نأمل أن هناك نية خفية وراء هذا الاختيار

حتى يحدث لنا التوازن النفسى بدلاً من القهر المعنوى الذى نتعرض له كل لحظة وليس كل دقيقة فحسب.

إن دعم الانتفاضة الفلسطينية واستمرارها هو استمرار لخيار المقاومة إلى أن تجبر إسرائيل على مراجعة نفسها أو إجبارها على التسليم بالحقوق العربية. ألا تتفقون معى على أن «ثقافة المقاومة» باتت هى الحل العملى فى ظل المحيط الذى نعيش فيه؟

***

المبحث الثالث

الخيار (شارون - بوش) والعصف بثوابت الحق الفلسطيني(*)

أخيـراً . . كُـشف النقـاب عن ذلك «الارتبـاط المقـدس» بين الرئيس الأمـريكى الجمـهورى «بوش» ورئيس الوزراء الإسرائيلى «شارون» . فقد التقى الرجلان بعد مباحثات سريعة بينهما فى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض بواشنطن ظهيرة يوم الأربعاء الماضى الموافق ١٤ أبريل ٢٠٠٤م . فكشف كلٌ منهما فى كلمته المختصرة الافتتاحية رسائل متبادلة بينهما قبل وصول شارون إلى البيت الأبيض تضمنت تقديم الوعود والضمانات الأمريكية لتنفيذ خطة شارون بالانسحاب من قطاع غزة وبعض أجزاء من الضفة الغربية ، وأعلنا معًا أنهما سينشران ذلك علنًا . ثم توالت الأسئلة عليهما ليتصدر الرئيس بوش بالرد على غالبيتها من زاوية - حسب قوله - حماية «صديقه» شارون من شهية الصحافة ووسائل الإعلام .

وقد خلصت تصريحات بوش إلى صياغة رؤية جديدة للإدارة الأمريكية إزاء الحقوق الفلسطينية الشرعية والمستقرة ، تقوم على خمسة أسس جديدة هى :

١ - تخلى اللاجئين الفلسطينيين عن حق العودة إلى إسرائيل ، وأنه يجب توطينهم فى دولة فلسطين وليس داخل إسرائيل .

٢ - لإسرائيل الحق فى الاحتفاظ ببعض «المستوطنات» - المستعمرات فى الضفة الغربية حفاظًا على أمنها واستقرارها وحلاً لإشكاليات ديموغرافية فى إسرائيل .

٣ - من غير الواقعى أن نتوقع اتفاق سلام نهائى بانسحاب إسرائيلى إلى حدود ما قبل الخامس من يونيه ١٩٦٧م أى أن حدود ١٩٦٧م ليست حدوداً مقدسة ولكنها قابلة لتجاوزها وعدم الالتزام بها .

(*) نشرت بالأهرام بتاريخ ، ١٩ / ٤ / ٢٠٠٤م .

٤ ـ الاعتراف الفلسطينى والعربى بالأمر الواقع استناداً إلى تغير الظروف على الأرض بفعل الزمن، وأن الحل النهائى للقضية الفلسطينية يجب أن يخضع للتراضى بين الطرفين بعيداً عن ادعاءات الحق والشرعية. أى أن سيادة الأمر الواقع هو الحل لمكافأة المحتل الإسرائيلى، ومكافأة المعتدى على عدوانه واحتلاله واغتصابه لأراضى الغير بالقوة العسكرية المسلحة!!

٥ ـ إن إقامة الدولة الفلسطينية مرهون بقيام السلطة الفلسطينية بالقضاء على الإرهاب وتفكيك بنيانه حفاظًا على أمن واستقرار إسرائيل. وهو ما يعنى تخلى إدارة بوش عن وعدها بإقامة الدولة الفلسطينية فى عام ٢٠٠٥م!! عندما تشترط ذلك على سلطة فلسطينية محاصرة، ناسفة بذلك كل الوعود السابقة.

فضلاً عن ذلك فإن شارون أعلن أمام بوش أنه يريد تحقيق السلام القائم على تعاليم أنبياء اليهود، وشكر «بوش» على دعوته بالالتزام الأمريكى بإقامة «الدولة اليهودية»، بالإضافة إلى التراجع الأمريكى عن رفض الجدار العازل حين أشار شارون إلى أن الرئيس بوش وافق على هذا الجدار بوصفه جداراً سياسيّا وأمنيّا فى الوقت نفسه!!

ـ هذه هى الأسس الجديدة للموقف الأمريكى الذى أعلن على الملأ وبدون صياغات ديبلوماسية مرنة تحتمل التأويل أو التفسير، بل أسس واضحة لا غموض فيها أعلنها رئيس الولايات المتحدة «بوش» بنفسه.

فالرئيس الأمريكى الحالى «چورچ دبليو بوش ـ أو بوش الابن»، هو الرئيس الأمريكى الأول الذى يعلن حق إسرائيل فى الاحتفاظ ببعض المستوطنات، ومن ثم الإقرار بشرعيتها وهو ما لم يعلنه رئيس أمريكى من قبل.

كذلك فإن منطق بوش الجديد فى إقرار منطق سيادة الأمر الواقع فى الصراع العربى الإسرائيلى وهو أمر غير مسبوق، يفتح الباب على مصراعيه أمام دوامة من العنف بلا حدود. وعندما يرى الرئيس الأمريكى بوش الابن أن نزع الإرهاب شريطة لإقامة الدولة الفلسطينية، فهو يتناسى أن أسسه الجديدة فى التعامل مع الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، هى المدخل لإشاعة ما يسميه بالإرهاب والتطرف، ويهدم عملية السلام بكاملها. وإذا كانت إدارة بوش الابن قد طرحت «خريطة الطريق» ـ فى سياق العدوان على العراق واحتلاله عسكريّا ـ للإسهام فى تحريك الأمور على المسار الفلسطينى

الإسرائيلى بغية كسب تأييد الموقف العربى والالتفاف على مبادرة السلام العربية فى مارس ٢٠٠٢م فى بيروت، إلا أن هذه «الخريطة» تنص على وقف العمل فى المستوطنات وإزالتها. ومن ثم فإن الموقف الأمريكى الجديد هو عصف واضح لهذه الخريطة المزعومة والتى سبق أن نبهنا - مع غيرنا - إلى أنها مسكن حتى يتم الاحتلال الأمريكى للعراق. وانكشف الآن كل المستور.

- **وعلى الجانب الآخر**، فإن الأسس الأمريكية الخمسة الجديدة، هى عصف بالشرعية الدولية ومقررات المنظمات الدولية وفى مقدمتها الأمم المتحدة وهى «وعد بلفور جديد». فقرارا مجلس الأمن رقمى (٢٤٢، ٣٣٨) يقران بحدود ١٩٦٧م وأن الوجود الإسرائيلى فى أراضى ما قبل يونيه ١٩٦٧م، هو سلطة احتلال. والقانون الدولى يقر بأن الاحتلال وجود مؤقت وليس وجودًا دائمًا. كما أن الاحتلال العسكرى لا يفرض أمرًا واقعًا ولا يعترف بمبدأ يسمى «الأمر الواقع» مثلما تريد إقراره إدارة بوش الابن كآلية جديدة فى قانون القوة الأمريكية المنفردة!!

كما أن إلغاء إدارة بوش لحق عودة اللاجئين الفلسطينية إلى أراضيهم يتناقض وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤، وكل قرارات المنظمات الدولية والإقليمية الأخرى.

فضلاً عن أن قدسية الحدود محكومة بالقرار الصادر بتقسيم فلسطين من الأمم المتحدة رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧.

- ولذلك فإن الأسس الأمريكية الجديدة تتنافى مع الشرعية الدولية، ومع الموقف الأمريكى التاريخى إزاء الحقوق الفلسطينية. ومن ثم فإن إدارة بوش لها الحق أن تفتخر بأنها الإدارة الوحيدة التى عصفت بكل ذلك، دون خجل أو إدراك بعواقب الأمور!!

لقد فقدت الولايات المتحدة وظيفة الوسيط المحايد والنزيه، والرهان على هذا الدور مرة أخرى هو رهان العاجزين. ويستدعى هذا المسلك الأمريكى الجديد ضرورة انتفاض الجسد العربى بأى صورة لإعمال أوراق الضغط الحقيقية. ويستلزم الأمر ضرورة الدعوة لمؤتمر دولى تحضره القوى الدولية الكبرى، وأن يخرج الملف الفلسطينى العربى - الإسرائيلى خارج يد الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة - برغم عجزها الذى نعرفه - وإلى القوى الدولية الفاعلة كأوروبا والصين وروسيا وفرنسا واليابان وألمانيا.

وعلينا أن نخرج من عباءة الخطاب الاستسلامى، فالمقاومة أصبحت قدراً محتوماً كما يبدو فى الأفق لمن يريد أن يفهم.

فالخروج الإسرائيلى الإرادى من غزة، هو خروج وانسحاب مشابه لما حدث فى جنوب لبنان منذ ثلاث سنوات، ولكن شارون أراد ألا يتكرر المشهد الانسحابى إلا بغطاء أمريكى. وهنا فإن مشهد المقاومة هو المشهد الحى والماثل أمام أعين كل الوطنيين، وليس أمام الذين ينظرون للمقاومة فى فلسطين والعراق على أنها مجموعة من محترفى القتل. قليلاً من الحياء.. وقليلاً من العمل.. وقليلاً من كل شىء ينصلح شأن العرب شريطة الإرادة السياسية والجماهيرية القوية.

***

المبحث الرابع

الإرهاب الصهيونى فى توظيف العداء للسامية(*)

لم يعد خافيًا على أحد الآن فى أى مكان فى العالم، حجم «الإرهاب الصهيونى» الذى تمارسه جماعات اللوبى الصهيونى فى أنحاء العالم كافة وبخاصة أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث توجد الجاليات اليهودية فى هذه المناطق. كما لم يعد خافيًا على أحد تلك المساندة من الإدارة الأمريكية وحكومات الغرب فى أوروبا، للمجازر التى يقوم بها شارون وحكومته الصهيونية فى إسرائيل، نتيجة سيطرة جماعات اللوبى الصهيونى فى هذه الدول على مراكز صنع القرار السياسى الذى يؤثر السلامة بالتأييد الأعمى لإسرائيل لظروف سياسية واقتصادية وإعلامية، وفى ظل اختلال موازين القوى الداخلية لصالح هذه الجماعات اليهودية الصهيونية على حساب الجماعات العربية والإسلامية. من المعروف أن هناك اختلالاً «وجوديًا»، داخل دول المجتمع الأوروبى والأمريكى، لصالح هذه الجماعات الصهيونية التى تعمل لصالح إسرائيل ومشروعها الاستعمارى الصهيونى، يقابله ضعف نسبى للجماعات العربية والإسلامية التى ينشغل أفرادها بهمومهم الشخصية فى الغالب، وتفتقد العناصر النشيطة منهم والمهمومة بالقضايا القومية والوطنية لغطاءات التأييد المباشر من الدول العربية والإسلامية، فضلاً عن ضعف مواقف هذه الحكومات، مما يفقد هذه الجماعات النشيطة قوتها فى الحركة السياسية توازيًا مع الجماعات الصهيونية، وفى ظل هذا الاختلال تنشط الجماعات الصهيونية لدعم إسرائيل الدولة من قبل حكومات الغرب، بكافة الوسائل، المشروعة وغير المشروعة، المادية والمعنوية. ولا يتورع أعضاء هذه الجماعات عن استخدام جميع الأساليب وبخاصة «اللا أخلاقية» للوصول إلى أهدافهم باستثمار ذلك فى ممارسة الضغوط والابتزاز لإخضاع الآخرين بأى ثمن. وعلى الرغم

(*) نشرت بالأهرام، بتاريخ ١٧ / ٨ / ٢٠٠٢م.

من قلة عدد يهود العالم الذين لا يتجاوزون ١٢ مليونًا منهم (٥) ملايين فى إسرائيل، ويناظرهم (٥) خمسة آخرون فى الولايات المتحدة، بينما العدد المتبقى والذى لا يتجاوز (٢) مليونين منتشرون فى أنحاء العالم وبخاصة أوروبا، إلا أن أهم ما يميزهم هو توافر «القدرة التنظيمية» والارتباط بـ«عقيدة صهيونية»، والتحالف مع «أهداف استعمارية». ولتجسيد الحلم الصهيونى لا يتورع يهود العالم من خلال جماعاتهم الصهيونية النشيطة، من استخدام جميع «الأساليب الابتزازية»، والتلاعب بكل المواقف والسياسات، والتدخل فى دهاليز السياسة بهدف التأثير فى صنع القرارات السياسية بخاصة فى الولايات المتحدة وأوروبا، للحيلولة دون التراجع عن الدعم المستمر لإسرائيل الدولة.

وقد نجحت الحركة الصهيونية العالمية فى استغلال ما يسمى بـ«الهولوكست» (المبالغ فيه بالطبع)، وهو الذى يشير إلى حجم «الفظائع» التى ارتكبتها النازية فى حق اليهود فى ألمانيا، خلال الحرب العالمية الثانية على يد هتلر. وحصلت إسرائيل على دعم مطلق ومستمر من الحكومات الألمانية منذ الأربعينيات حتى الآن. كما تحصل على دعم وتعويضات مادية رسمية سنوية فى ظل «عقدة الاضطهاد» المزعومة والمبالغ فيها. وقد انسحب ذلك على أوروبا كلها وانتقل إلى الولايات المتحدة (وريثة الاستعمار الأوروبى ووريثة الكيان الصهيونى أيضًا). واستصدرت القوانين فى أنحاء أوروبا بخاصة، لتجريم المساس باليهود أو التشكيك فى «الهولوكست» أو مذابح اليهود على يد هتلر. ومن هذه القوانين، تلك التى يُحاكم بسببها السيد / إبراهيم نافع نقيب الصحافة العربية والمصرية ورئيس أكبر صحيفة ومؤسسة صحفية هى «الأهرام»، على مستوى الوطن العربى، أمام المحاكم الفرنسية بتهمة «العداء للسامية». وليس السيد/ نافع، إلا حلقة من حلقات الإرهاب الصهيونى، وذلك بعد أن نجحت الجماعات الصهيونية فى تخويف المجتمع الأوروبى والأمريكى، وصل إلى حد «الترهيب» لجماعات الفكر والإعلام فى عدم الإقدام على نقد الفكرة الصهيونية أو التشكيك فى أى معلومات تتعلق بالاضطهاد اليهودى أسهمت الصهيونية فى ترسيخها فى «الذهن الغربى»، و«العقل الجمعى فى الغرب». حيث إن هذا التشكيك قد يسهم فى تقويض الدعم المطلق للصهيونية ومشروعها الإسرائيلى. وقد وصل حد الإرهاب

الصهيونى إلى حد تخويف أى إعلامى أو مفكر يحاول دعم فكرته أو أفكاره باستدعاء أى معلومات تاريخية قديمة حتى لو كانت موثقة.

وهنا فإن محاكمة المفكر الفرنسى «جارودى» على جرأته فى النقد، وصل إلى حد التشكيك فى مذابح اليهود المزعومة، ووصل إلى حد اعتبارها مجرد «أساطير» لا وجود لها فى الواقع العملى، تأتى فى سياق الإرهاب الصهيونى. وحدث ذلك فى ألمانيا وهولندا وبريطانيا والنمسا وسويسرا، وغيرها من الدول الأوروبية. وقد وصل الأمر إلى حد اعتبار الأساطير الصهيونية أمورًا مقدسة، لا يجب المساس بها بقوة القانون من ناحية، وبقوة الآلة الإعلامية الصهيونية التى يتم استثمارها فى الإرهاب والتخويف والترويع لكل من تسول له نفسه الاقتراب من هذه «البقرة المقدسة» المعروفة بـ «العداء للسامية». فالصهيونية تسعى بكل الأساليب لتكتيل الرأى العام العالمى نحو تكريس القداسة على «الأساطير الصهيونية».

* **والسؤال هنا هو**: هل يمكن كسر حلقة الإرهاب الصهيونى؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من إيضاح أن هناك أهدافًا أساسية من وراء توجيه حملة الجماعات الصهيونية إلى رموز عربية وإسلامية ومن ذلك:

١ ـ التغطية على الجرائم الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة خاصة منذ مارس الماضى (٢٠٠٢م).

٢ ـ الحد من تنامى الشعور بالتعاطف فى المجتمعات الأوروبية مع الفلسطينيين مع تنامى الشعور المضاد للسلوك العدوانى الإسرائيلى.

٣ ـ الحد من حملة النقد الواسع لإسرائيل والصهيونية فى وسائل الإعلام العربية والإسلامية.

٤ ـ تبرير الهجوم الإسرائيلى المستمر على الشعب الفلسطينى كرد فعل للسلوك العربى بـ «معاداة السامية».

٥ ـ الاتساق مع حملة مواجهة الإرهاب بقيادة الولايات المتحدة من زاوية أن التخويف والترهيب يقللان من «الإرهاب العربى والإسلامى»، باعتبار أن إلصاق تهمة الإرهاب بالمسلمين أصبحت حقيقة حسب الزعم الأمريكى والإسرائيلى!!

٦ ـ إقناع الولايات المتحدة بأن إسرائيل شريكة معها فى مواجهة الإرهاب الإسلامى، بالإسهام فى التخويف والترهيب ضد رموز عربية وإسلامية.

٧ ـ السعى نحو إسكات الأصوات العربية بالتخويف والإرهاب، لتمرير المشروع الصهيونى الإسرائيلى المدعوم أمريكيًا والمسكوت عنه أوروبيًا وعالميًا.

* وفى ظل هذه المزاعم والأهداف الخبيثة للصهيونية العالمية، فإن الإجابة عن السؤال بشأن المواجهة المضادة لهذه الحلقة من حلقات الإرهاب الصهيونى، تصبح أمرًا ملحًا وضروريًا فى هذه الآونة.

فالملاحظ أن هناك أصواتًا لا تمل ولا تسكت فى مواجهة هذا الإرهاب الصهيونى داخل المجتمع الأوروبى والأمريكى وبالطبع داخل المجتمع العربى والإسلامى، مهما يحدث لها. فها هو ذا الكاتب الألمانى الشهير «مارتن فاسلر» الذى أصدر كتابًا جديدًا بعنوان «موت ناقد»، يتناول فيه قضايا الهولوكست بأسلوب يقلل من بشاعتها، وله كتاب آخر منذ ٤ سنوات يهاجم فيه المزاعم الصهيونية بشأن استخدام قضايا الهولوكست سيفًا مسلطًا على رقاب الألمان لإحياء الشعور بالذنب والخجل لأسباب سياسية، ولهذا الكاتب شهرة كبيرة وله أربعون مؤلفًا، وبرغم أنه قد وجهت له تهمة العداء للسامية، فإنه مع استمرار تحديه فى كتاباته لحجم ما عاناه اليهود من اضطهاد، أصبح كثيرون يعتبرون هذه الكتابات تصحيحًا للتاريخ وليس معاداة للسامية، وقد أشارت د. ليلى تكلا إلى تفاصيل ذلك فى مقالها «معاداة السامية»، فى ٢٥/ ٦/ ٢٠٠٢م بالأهرام.

كما أن طرد النائب العربى الأصل «جمال قرصلى» من صفوف الحزب الديمقراطى الحر فى ألمانيا، لم يثن الحزب نفسه عن رفض التخويف الذى تمارسه المنظمات الصهيونية والأمريكية تجاه موقفه من اليهود. وقادة الحزب يصرحون علانية بأن اليهود أنفسهم هم المسئولون عما جرى لهم، فضلاً عن عدم تراجع النائب العربى فى البرلمان الألمانى عن أفكاره وتصريحاته.

ـ وصرح «ريتشارد كوهين» ـ الكاتب اليهودى بأن انتقاد إسرائيل ليس «معاداة للسامية» (الحياة ١١ / ٥ / ٢٠٠٢م).

ـ فضلاً عما صرح به بلير (رئيس وزراء بريطانيا)، بأن تعاطف الأوروبيين مع الفلسطينيين لا يعنى معاداتهم للسامية وإسرائيل (أهرام ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٢م).

ـ ويصر حاخامات اليهود الحقيقيون فى بريطانيا فى تصريحات رسمية للأهرام فى يونيه الماضى، على أن تفكيك إسرائيل، وإقامة دولة فلسطينية هما الطريق الوحيد للسلام. هكذا تحدث «جرومان، وكوينج، وجولد شتاين»، الذين أكدوا فى رسالة إلى بوش أن «وقف دعم إسرائيل هو الوسيلة الوحيدة لمساعدة الشعب اليهودى». وقد أكدوا ذلك فى حوارات مستمرة فى قناتى الجزيرة وأبو ظبى. ويؤكد ذلك أن إسرائيل تجسيد لفكر استعمارى لا «يهودى».

* وتعليقًا على السعى الصهيونى لمحاكمة السيد / نافع، أعلن الحاخام «ياكوف كوينج» أحد زعماء منظمة «ناتورى كارتا» اليهودية العالمية، عن كشف الأهداف الخفية لهذه الحملة الصهيونية التى تنجم عن أهداف سياسية، فلا يمكن اتهام الأهرام بمعاداة السامية؛ لأن العرب ساميون أصلاً، ومن ثم كيف يعادى العرب أنفسهم؟ ولذلك فهو لا يصدق ذلك الاتهام ويرفضه (الأهرام ٧ / ٨ / ٢٠٠٢م).

وها هو ذا المحامى اليهودى الأمريكى (ستانلى كوهين) يدافع عن الفلسطينيين ويجاهر بعدائه لإسرائيل والتواطؤ الأمريكى (حوار مع قناة الجزيرة ـ نشر بجريدة الأسبوع فى ١٠ / ٦ / ٢٠٠٢م).

ـ ويكشف هذا الإيضاح لعدد من المواقف، داخل المجتمع الأوروبى، والأمريكى عن وجود قنوات كثيرة مستعدة للدفاع عن القضية العربية ومجابهة أكاذيب الصهيونية العالمية وإسرائيل، ومستعدة أيضًا للكشف عن حجم التواطؤ القائم بين الحكومة الأمريكية وحكومات الغرب والصهيونية العالمية، لتهيئة الأجواء نحو التأثير فى دوائر صنع القرار السياسى فى هذه البلدان.

ـ ولعلنا نستثمر هذه الفرصة فى الدفاع عن رموزنا الفكرية ومؤسساتنا الإعلامية العريقة ممثلة فى «الأهرام، والسيد / إبراهيم نافع»، أن نسهم فى حملة موسعة نحو التأثير فى المجتمعات الأوروبية خاصة، لإلغاء القوانين التعسفية والمنحازة لليهود على حساب الآخرين بما يسهم فى فك عقدة الاضطهاد التى تعيشها أوروبا منذ أكثر من خمسين عامًا، بل هناك قوانين تمتد إلى القرن التاسع عشر وهى التى سيحاكم السيد/ نافع بها!!

* لقد آن الأوان لأن نخرج من دائرة «رد الفعل» إلى «الفعل» حتى نكسب أرضًا حقيقية نواجه بها الوجود الاستعمارى لإسرائيل تحت زعم فكرة الوطن القومى لليهود!!

فإسرائيل هى دولة استعمارية تحمل أيديولوچية توسعية، وهى بالتالى دولة عنصرية إرهابية. ولن يخيفنا هذا الإرهاب الصهيونى وسنظل نقاومه ولن نستسلم مهما كان الثمن.

* ولعل هذا المقال ليس لمجرد الدفاع عن السيد / نافع، أو تأييد كل الجهود الداعمة له - وهو يستحق كل ذلك، وإنما مشاركة فى كشف الحقائق عن واقع الإرهاب الصهيونى والطبيعة الاستعمارية لإسرائيل. ونتمنى أن يفيق المجتمع الفرنسى مما يحاصره. فپاريس عاصمة النور والحرية، هل من الممكن أن تكون مقبرة للأحرار تحت الإرهاب الصهيونى؟! هذا ما لا نتمناه لفرنسا وتاريخها الثورى ومبادئ الثورة الفرنسية. ونحن مع غيرنا لن نسكت عن الإرهاب الصهيونى أينما كان.

* **وختامًا**: فإن أصبحت «المعاداة للسامية» آلية للإرهاب الصهيونى، حماية لإسرائيل الاستعمارية، فالأمر يحتاج لآلية عربية تضرب ذلك فى العمق لتقويض أسس الإرهاب الصهيونى المولدة للانحياز الأعمى لإسرائيل الاستعمارية التوسعية والعدوانية، وإنا لمشاركون ومنتظرون.

* * *

المبحث الخامس

طرد عرفات جريمة مع سبق الإصرار والترصد(*)

فى أسبوع واحد فاجأتنا إسرائيل بنيتها الصريحة بطرد عرفات وحتى تصفيته.. وفاجأنا الاتحاد الأوروبى بالرضوخ للضغوط الأمريكية.. طمعًا فى نيل جزء من الكعكة العراقية بإعلانه أن «حماس» منظمة إرهابية.. والمجتمع الدولى صامت على الجرائم الإسرائيلية ضد المدنيين وكوادر المقاومة الشعبية، وأمريكا تشهر «الڤيتو» الشهير ضد أى محاولة لتجريم «جرائم» الكيان الصهيونى!! وما يحدث أمام العالم اليوم سابقة خطيرة.. تضاف إلى ممارستها الوحشية ضد شعب محتل.. وقانون دولى.. منتهك العرض وعالم عربى يقف مكسور الجناح ضد عولمة أفقدته صوابه وكثيرًا من حقوقه. فهل حان الوقت لأن نلعب بكروت الضغط الكثيرة التى نملكها ونادرًا ما نستخدمها؟!! وكان هذا الحوار مع د. جمال زهران أستاذ العلاقات الدولية ورئيس قسم العلوم السياسية بجامعة قناة السويس.

*** إعلان إسرائيل - على الملأ - نيتها لطرد عرفات، أو التخلص منه باغتياله «سابقة» أذهلت المجتمع الدولى.. وإهانة أخرى - جرحت فيها الكرامة العربية.. فما الحل للخروج من هذا المأزق السياسى؟**

- نحن للأسف نعيش عصرًا إرهابيًا أمريكيًا.. فهى التى تشيعه بإعطائها إسرائيل الضوء الأخضر للقضاء على المنظمات الفلسطينية مما شجعها على الجهر بنواياها أولاً بعدم التعامل مع الرئيس عرفات ثم طرده نهائيًا خارج الأراضى الفلسطينية.

وقد سبقتها فى ذلك الولايات المتحدة وذلك يعنى أنها تجاوزت الشرعية الدولية والشرعية الممنوحة لعرفات من شعبه.. فى هذا السياق، فإن إسرائيل مخولة تمامًا أن

(*) حديث للكاتب مع مجلة آخر ساعة بتاريخ ١٧ / ٩ / ٢٠٠٣م، أجرته الصحفية / وفاء الشيشينى.

تتصرف كما يحلو لها، خارج العرف والقانون الدولى، وقواعد التنظيم الدولى فلا يجوز قانونًا أن تهدد دولة رئيس دولة أخرى وإلا يُعدُّ - إعلان حرب - كما لا يجوز أن تعلن دولة ما أنها أحلت دم «رئيس» منتخب من شعبه عن طريق الاغتيال . . يُعدُّ أيضًا إعلانًا بالحرب . . وهى نية - تحت سبق الإصرار والترصد - يعاقب عليها القانون - أيضًا - ولكن المشكلة هنا من أعطى إسرائيل وحكومتها هذه القوة للتصريح العلنى لجريمة قتل - دون أن تخشى أى عواقب من القانون الدولى . . طبعًا الإجابة أنها أخذت - هذا الجبروت - من الولايات المتحدة التى خرجت على نفس القانون الدولى وعن الشرعية باحتلالها السافر للعراق .

*** ألا يشبه السلوك الإسرائيلى الأمريكى سلوك الجماعات المتطرفة من إهدار دم الحكّام؟**

- إن التهديد بالإطاحة بالرئيس عرفات، يعطى الشرعية الدولية للجماعات الخارجة على النظام الدولى بوضع قائمة لاغتيال رؤساء الدول تحت شعار «العين بالعين» . . فى هذا المضمار فإن من حق المنظمات الفلسطينية أن تعلن أن رأس شارون - سيكون مقابل رأس «عرفات» . . لأنه لا بد أن يعرف كل طرف حدوده فى السلوك السياسى عندما يريد أن يكون «عضوًا» فى المجتمع الدولى .

*** هل يعلنها الإسرائيليون - أى بالتلويح بالاغتيال - حتى يكون الطرد أمرًا هينًا ومقبولاً وهى إحدى الألاعيب المعروفة فى السياسة الإسرائيلية؟**

- ممكن بالطبع . . ولكن هناك رأيين فى الحكومة الإسرائيلية . . أحدهما يحبذ «الطرد» حتى يستريحوا من مقاومته ويُشكّل فى هذه الحال حكم انتقالى كما هو معمول به فى العراق وعلى الجامعة العربية أن تخضع وتعترف به تحت حكم الإدارة الإسرائيلية الأمريكية . أما السيناريو الآخر فهو اغتياله وبعدها يتم بسهولة اغتيال كل القيادات الفلسطينية . . وهى مؤامرة محبوكة الأطراف ومعدة للتنفيذ منذ سنتين تقريبًا . .

*** إن احتلال العراق وقتل الشرعية الدولية كان لا بد أن يؤدى إلى التصريح باغتيال رئيس دولة محتلة . . إنها توابع زلزال القطب الواحد .**

ـ للأسف العالم العربى فى خطر . . !! كل الأنظمة فى خطر بدون استثناء . . لا بد من التحرك سريعًا لردع إسرائيل . . فنحن نعيش «لحظة حاسمة» فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى إما أن يكون لك موقف حاسم . . وإما التنازل المستمر الذى سوف يؤدى إلى ترسيخ مرحلة الحقبة الإسرائيلية بكل نتائجها الخطيرة على المنطقة!!

*** ألا يمكن أن نتهز فرصة الاعتراف العلنى والسافر بمشروع الاغتيال ونرفع قضية سريعة فى المحكمة الجنائية الدولية فى بلجيكا ضد شارون وعصابته؟**

ـ لا بد أن نرفع قضية جديدة ضد شارون وحكومته، وضد الأمم المتحدة نفسها، وضد الرئيس بوش أيضًا؛ لأنه شريك فى هذه الجريمة . . كما لا بد أن نطبق عليهما نفس المعايير الإرهابية التى يطبقونها على الآخرين وكل أحكامه . . لا بد أن نستخدم كل أوراق الضغط التى لدينا ـ وصدقينى لدينا الكثير ولسنا بالضعف الذى نوصف به . .

*** ولو حدث ـ حاشا لله ـ «اغتيال عرفات» فما تأثيره على المنطقة؟!**

ـ سقوط المنطقة فى العنف والعنف المضاد بطريقة وبشكل لم نره من قبل وسوف تغرق المنطقة فى كوارث لا مثيل لها!!

* * *

يقول د. جمال زهران إننا نعيش العصر الأمريكى والحقبة الإسرائيلية معًا . . لعبا معًا لعبة التحالف الكبرى والمصالح الكبرى وتحكموا معًا فى مقدرات العالم عن طريق الضغوط والابتزاز، وكان نتيجته الأخيرة هى إذعان الاتحاد الأوروبى فى لعبة التوازنات والمصالح المشتركة، وإعلانه «حماس» منظمة إرهابية والتجاهل التام لكل ممارسات الحكومة الإسرائيلية الإرهابية لذلك كان السؤال التالى هو:

*** على أى أساس استند الاتحاد الأوروبى لإدراج «حماس» منظمة إرهابية؟**

ـ أولاً أحب أن أشير إلى أن إدراج «الجناح العسكرى» لمنظمة حماس تحت بند المنظمات الإرهابية جاء تطورًا مفاجئًا وغير متوقع، ومسايرة للولايات المتحدة فى حربها المزعومة ضد الإرهاب . . وهو تطور مفاجئ لأن الاتحاد كان دائمًا يقف مع عدالة القضية الفلسطينية وكان لا يساير السياسة الإسرائيلية بصفة عامة وممارستها غير القانونية واللاإنسانية، بل إنه كان عندما يزور الأراضى المحتلة كان يصر على مقابلة

«الرئيس عرفات» برغم غضب وتهديد المسئولين الإسرائيليين . . وكانت ردود فعلهم عنيفة وغير ديبلوماسية بالمرة . . وهذا يظهر لنا سياستها المتعسفة والتى لا تريد سوى مفاوض يستسلم لرغباتها وإرادتها وينفذ سياستها . . وأعتقد أن موقف الاتحاد الأوروبى ما هو إلا محاولة لاسترضاء الولايات المتحدة وضغوطها بحسبان «حماس» منظمة إرهابية ـ وليس بقية المنظمات مثل الجهاد . . وشهداء الأقصى كما كانت تريد أمريكا . . وأنا أعتقد أن تصرف الاتحاد الأوروبى ما هو إلا محاولة جس النبض عند الفصائل الفلسطينية والدول العربية وقياسًا لرد الفعل . . كل ذلك فى مقابل أن يكون لها دور فاعل فى العراق وكذلك الأمم المتحدة لكى تنال جزءًا من كعكة الإعمار العراقى . . لذلك تحاول أن تسترضى الولايات المتحدة وربيبتها إسرائيل بتجريم ممارسات «حماس»!! وأعتقد أن ما نشاهده هو مجرد «بداية»!! فقد يصل بها الأمر إلى أن تجرم كل أنواع المقاومة الفلسطينية إسلامية أو غير إسلامية . كله فى مقابل ـ الصفقة العراقية . .

ولا ننسى أن الاتحاد الأوروبى واقع تحت الضغط الأمريكى الإسرائيلى من ناحية ، وتحت الضغط العربى الذى جاء شديداً ـ على الأقل من الناحية الكلامية .

ولكن موقف الجامعة العربية كان قويًا وصريحًا ، والذى أدان هذا التصرف وحذر من عواقبه . . وفى حديث لـ «خافيير سولانا» الذى زار المنطقة فى الأيام السابقة فى محاولة تسويغ لإدانة «حماس» أعلن أنه من الممكن أن يعيد الاتحاد النظر فى موقفه من حماس ، بعد فترة تتحول فيها منظمة «حماس» إلى منظمة سياسية فقط بدون جناحها العسكرى .

*** ما المبررات التى قدمها الاتحاد الأوروبى للدول العربية لتصرفه المفاجئ هذا؟**

ـ مبررها أنها منظمة تقتل المدنيين الإسرائيليين كأن إسرائيل لا تقتل المدنيين الفلسطينيين يوميًا ولعشرات السنين ، وأنا أرد عليهم دعواهم هذه بأن منظمة «حماس» لها هدف رئيسى وهو تحرير الأرض الفلسطينية المحتلة فى حدود ٦٧ على الأقل ؛ لأن دولة فلسطين بما فيها الجزء الإسرائيلى . . هى أرض محتلة من قبلهم وهى ملك للفلسطينيين أصلاً . . قبل قرار تقسيم عام ١٩٤٧م وقد ارتضينا واقعيًا بهذا التقسيم الفلسطينى . . الإسرائيلى لذلك فإن من حق كل الفلسطينيين أن يقاوموا المحتل ـ باسم

الحق الذى يكفله لهم القانون الدولى والأعراف الدولية ـ سواء كانوا عسكريين أو مدنيين . . فهو استعمار استيطانى . . وليس حملة عسكرية أو حربًا مؤقتة . والغريب أن الدولة المحتلة وهى إسرائيل هى التى تتعقب المدنيين وتغتالهم فى عقر دارهم . . وتفجر المنازل وتحرق الزرع وتجرف الأراضى . . وكلها ممارسات إرهابية . . ولا ننسى ما فعله الجيش الإسرائيلى فى «جنين» حيث قتل ألفين من المدنيين . . ولا ننسى طولكرم . . ونابلس وقتل الأطفال والنساء والشيوخ بدم بارد ! ! أليس كل ما سبق إرهاب دولة ! !

*** لماذا لم يتحرك الاتحاد الأوروبى لإدانة الممارسات الإسرائيلية حتى فى الشهور الماضية من اغتيال القيادات ومعهم عائلاتهم والمدنيون المحيطون بهم . . ألم يروا فى ذلك أى جريمة؟**

ـ للأسف العالم الغربى صهيونى التوجه والهوى ويتبع الضغوط الإسرائيلية على الأصعدة كافة . . وليس هناك قوى موازية للضغط الصهيونى فى هذه البلاد . لذلك كان لا بد أن ترتبط هذه الابتزازات بضغوط عربية موازية . . فإذا لم تفعل هذه الضغوط العربية . . فسوف تستمر هذه السياسات الأوروبية والأمريكية المنحازة تمامًا لإسرائيل وتتعامى عن كل ممارساتها اللاإنسانية واللاأخلاقية والاستعمارية . . تتعامى لدرجة السكوت عن كل مذابحها المعلنة فى وسائل الإعلام ! !

*** وكيف نفعّل القوة العربية؟**

ـ نفعّلها بتبادل المصالح ! ! فإذا لم تشعر أوروبا بأن هناك مصلحة سوف يهددها موقفها المنحاز لإسرائيل . . فهى لن تلتفت إلينا مهما كان الباعث الأخلاقى ! ! إذن من السذاجة أن نتصور أن الرفض أو إدانة القرار الأوروبى سوف يكون له أى تأثير على القرارات المستقبلية إذا لم يرتبط بمصلحة ما . . أو فقدان امتياز ما ! ! سوف أضرب لك مثالاً لم تتحرك الدول العربية بفاعلية عندما تم تعيين أحد غلاة الصهيونية فى أحد مراكز البحث الأمريكية ! ! ولأن الضغط الصهيونى كان أقوى بكثير من الاعتراضات العربية لم يعيرونا أى التفات ، ولكن فى المقابل عندما كان يتم اختيار إحدى الشخصيات العربية البارزة فى موقع مهم ـ مثلاً فى البيت الأبيض ـ فيحدث هجوم شديد من الصهاينة على القرار ، فتتراجع الحكومة الأمريكية عن هذا الاختيار ! ! ويحدث هذا فى كل أوروبا تحت شعار معاداة السامية أو أى سبب مختلق آخر .

للأسف نحن نعيش «فترة المقاومة الرخوة»، والأنظمة العربية تشارك فى هذه الرخاوة.. لذلك يشعر الجانب الأوروبى أن ردَّ الفعل العربى لن يكون بالقوة التى تؤثر فى الأحداث فيستهان به.. أما إذا شعر برد فعل مؤثر وبتهديد لمصالح مشتركة.. فإن هذا يمكّنه من أن يعيد النظر فى مواقفه!

*** ألا يرى العالم أن إسرائيل دولة احتلال وعلى الفلسطينيين مقاومتها؟**

- إن وجود إسرائيل على أرض فلسطين باطل، ومن ثم كل ما يثمر عنه من ممارسات فكلها باطلة!! كما لا ننسى أن إسرائيل نفسها تخلت عن أى اتفاقيات أقرتها فى أى وقت!! لا ننسى أنها حددت من قبل من أيام إدارة «كلينتون» ميعاداً لقيام الدولة الفلسطينية وتم التراجع عن كل ما اتفق عليه، واليوم يدعون أنه لأول مرة تقرر أمريكا ميعاداً لقيام الدولة الفلسطينية!!

هم يريدون دولة فلسطينية تعمل كبوليس حام للدولة الصهيونية.. تقوم بدلاً من إسرائيل بالقضاء على كل أصناف المقاومة الشرعية للاحتلال.. هم يريدون دولة بلا سيادة أو جيش أو سيطرة ومفككة جغرافيّا.. هذه هى الدولة الحلم للإسرائيليين!!

*** كانت دائمًا حجة أمريكا فى الدفاع عن سياسة الاغتيالات التى تنتهجها إسرائيل بأنها «حق الدفاع عن أمنها وعن شعبها» بماذا نرد على هذا الادعاء؟**

- إسرائيل هى التى تقدم على الاغتيالات وتجريف الأراضى.. وعلى رفض كل المواثيق الدولية والتى تنتهكها يوميّا حتى الآن.. وهى التى تحاصر ياسر عرفات منذ عام.. وتضرب المدنيين بالطائرات الأمريكية وفى وسط صمت دولى مريب.. وفى الوقت نفسه تمنع أمريكا أى قرار يدين إسرائيل فى مجلس الأمن، وبالتالى فقدت الأمم المتحدة شرعيتها فى التعامل مع القضية الفلسطينية.. فالذين لهم حق حماية أنفسهم هم الفلسطينيون، وليسوا المحتلين الإسرائيليين، بكل أنواع المقاومة.. فهذا هو الطريق الوحيد للحصول على أى حقوق.. نتفاوض.. نعم.. ولكن بوجود مقاومة تعزز قدرتنا التفاوضية وتأتى لنا بأفضل الشروط!!

*** اتهمت منظمات المقاومة الإسلامية وغير الإسلامية بقتل المدنيين والذى يقتل معها التعاطف الغربى. فلماذا لا يقتصرون على قتل الجنود وفى ذلك نرد عليهم الاتهام ونقضى على أعذارهم تلك؟**

ـ لقد قال حسنين هيكل مرة فى تصنيفه للمجتمع الإسرائيلى: إنه مجتمع عسكرى ولا يوجد به مدنيون؛ لأنهم كلهم جنود فى الجيش الإسرائيلى. وأنا أؤيد كلامه هذا.. فالجميع فى حالة تجنيد إجبارى فى حالة الحرب أو فى وقت المواجهات الشعبية!!

ولا ننسى أن المقاومة لا تبادر بقتل المدنيين ولكن كل عملياتها كانت «رد فعل» على اغتيال الأطفال والنساء وعائلات الاستشهاديين والقتل العشوائى بدون تمييز!! وأنا لا أرى «جرمًا» عندما أطبق قانون العين بالعين، فالدم الإسرائيلى ليس أغلى من دم المدنيين الفلسطينيين!! ومثال آخر.. المدنيون الذين يعملون مع الجيش الأمريكى فى العراق.. أليسوا يخدمون قوة الاحتلال وإذا قتلوا فى معارك المقاومة.. نقول عليهم إنهم يقتلون المدنيين؟

*** هناك من يقول إن الفلسطينيين فى حالة استضعاف شديدة وينكل بهم بطريقة فاقت كل حدود.. أليس من مصلحتهم أن يهادنوا قليلاً..؟**

ـ وقاطعنى قائلاً: ليس صحيحًا أن الفلسطينيين ضعفاء.. لو كانوا ضعفاء كما يشيع (الضعفاء فعلاً!!) لاستطاعت إسرائيل أن تبيدهم أو ترحلهم خارج فلسطين، وبالمثل ليس العراقيون ضعفاء ولا المقاومة العراقية ـ هشة ـ وإلا لما كانت فرضت نفسها على الحياة ومشاعر الرأى العام الأمريكى.. وكلتا المقاومتين ـ العراقية والفلسطينية ـ جبارة وعندها قدرة على الاحتمال لا يتصورها أحد!! وعلى فكرة المقاومة الفلسطينية هى أكبر وأقوى ورقة ضغط لدى عرفات والسلطة الفلسطينية.. ومن الغباء أن يتخلوا عنها تحت شعار أنها إسلامية وخطرة على الأنظمة العربية، ومن غير هذه المقاومة ـ سوف يقبل العرب سلامًا عاجزًا مذلاً.. ناقصًا ودولة فلسطينية مشبوهة..

*** هل كانت عملية القدس خطأ استراتيجيًا من قبل «حماس» فى تلك الفترة الحرجة من التاريخ الفلسطينى؟**

ـ لا.. لأنها كانت رد فعل على خريطة الطريق.. على الاغتيالات الإسرائيلية وتجريف البيوت والاعتقالات والتعذيب والرجوع عن الاتفاقيات وقتل الأطفال

والنساء . . وللعلم . . لا تنجح المفاوضات إلا على أسنة الرماح . . وتذكرى أن مفاوضات ڤيتنام لم تنجح إلا تحت ضغط مقاومة رجال «هوشى منه» لأمريكا . . لماذا لا نتعلم؟ فى جنوب إفريقيا . . لم تنجح المفاوضات ولم تقض على حكومة «شميث» العنصرية إلا من خلال المقاومة السوداء . . وبالمثل المقاومة الجزائرية لم تقبل فرنسا الصلح والرحيل عن الجزائر إلا من خلال المقاومة الشديدة والمستمرة!!

***